تعالوا ... يا جميع المتعبين

«تعالوا إليّ يا جميع المتعبين
والثقيلي الأحمال ، وأنا أريحكم ...
احملوا نيري عليكم وتعلموا مني -
لأني وضيع ومتواضع القلب ..
فتجدوا راحة لنفوسكم ، لأن نيري
هين وحملي ضعيف»

(مت ١١ : ٢٨ - ٣٠).

obeikandl.com

obeikandl.com

هل كانت رسالة المسيحية ألحاناً حلوة النغمات عن المحبة وإنكار الذات، والفناء في الله وخدمة الناس ... دون أن تتضّمن حلولاً مباشرة لمشكلات المغبونين والمقهورين؟؟

إنّ المجتمع في العالم الروماني – وفي غير العالم الروماني – كان يشكو فوارق القوميات، وفوارق الطبقات، كما تقدّم في فصول هذا الكتاب ... فماذا فعل المسيح تجاه الذين يئنّون ويتوجعون من المظلومين ... هل تركهم ومضى مكتفياً بالتبشير بملكوت السموات !!!

لقد مسّ المسيح آلام هؤلاء المعذّبين مباشرة، وتابعه في ذلك تلاميذه .. تحدّث عن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لايستطيعون حيلة ولايهتدون سبيلاً ..

ولم تهمل المسيحية قضايا العصر: أنصفت الطفولة كما أنصفت الأمومة، وتعرّضت لمسألة الرقيق، كما تناولت مشكلة الأغنياء والفقراء – على طريقتها الخاصة المتميّزة.

للمسيح على **الأطفال** حَدَبٌ وحنان ... تكلَّم عنهم، وردّد هذه العبارة الساحرة: «من أفواه الأطفال والرُضَّع هَيَّأْتُ تسبيحاً»!!

«في تلك الساعة تقدّم التلاميذ إلى يسوع قائلين: فمن هو أعظم في ملكوت السموات! فدعا يسوع إليه ولداً وأقامه في وسطهم وقال: الحق أقول لكم: إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات! فمن وضع نفسه مثل هذا الولد فهو الأعظم في ملكوت السموات، ومن قبل ولداً واحداً مثل هذا باسمى – فقد قبلني، ومن أعثر أحد الصغار المؤمنين بي فخيرٌ له أن يُعَلَّقَ في عنقه

حجر الرحى ويُغْرَقَ في لجّة البحر ! ... انظروا ، لا تحتقروا أحد هؤلاء الصغار ، لأني أقول لكم : إنّ ملائكتهم في السموات كلّ حين ينظرون وجه أبي الذي في السموات »!! (مت ١٨ : ١-٥ ، ١٠ ، مر ٩ : ٤٢)

«حينئذ قُدِّمَ إليه أولاد لكي يضع يديه عليهم ويصلي ، فانتهرهم التلاميذ ! أما يسوع فقال : دعوا الأولاد يأتون ولا تمنعوهم ، لأنّ لمثل هؤلاء ملكوت السموات! فوضع يديه عليهم ، ومضى من هناك » (مت ١٩ : ١٣-١٥ ، مر ١٠ : ١٣-١٦ ، لو ١٨ : ١٥-١٧) .

«فلما رأى رؤساء الكهنة والكتبة العجائب التي صنع ، والأولاد يصرخون في الهيكل ويقولون : أوصنا يا ابن داود - غضبوا ، وقالوا له : أتسمع ما يقول هؤلاء؟ فقال لهم يسوع : نعم ، أما قرأتم قط : من أفواه الأطفال والرضّع هيّأت تسبيحاً !!» (مت ٢١ : ١٥-١٦).

وفي رواية لإنجيلي مرقس ولوقا - يتخذ المسيح من الأطفال موضوعاً يلقن منه تلاميذه الدرس الذي لا ينسونه : «وجاء إلى كفر ناحوم ، وإذ كان في البيت سألهم : بماذا كنتم تتكالمون فيما بينكم في الطريق ؟؟ فسكتوا !! لأنهم تحاجّوا في الطريق بعضهم مع بعض فيمن هو أعظم !! فجلس ونادى الاثنى عشر .

فأخذ ولداً وأقامه في وسطهم ثم احتضنه ، فقال لهم : من قبل واحداً من أولاد مثل هذا باسمي يقبلني ، ومن قبلني فليس يقبلني أنا - بل الذي أرسلني » (مر ٩ : ٣٣-٣٧ ، لو ٩ : ٤٦-٤٨) .

وللنساء في (العهد الجديد) مكانة وكرامة ...

تحدث المسيح مع امرأة سامرية : «وعند ذلك جاء تلاميذه ، وكانوا يتعجبّون أنّه كان يتكلم مع امرأة !! ... » (يو ٤ : ٢٧).

فالحديث إلى امرأة كان أمراً إدًّا لا يليق بمقام المرسلين !!

وقد رأى المسيح في الزوجية عروة وثقي وميثاقاً غليظاً : «وجاء إليه الفريسيون ليُجَرِّبُوه قائلين له : هل يحلّ للرجل أن يُطَلِّقَ امرأته لكل سبب؟ فأجاب وقال لهم : أما قرأتم أنّ الذي خلق من البدء خلقهما ذكراً وأنثى ... وقال : من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ، ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسداً واحداً !! إذن ليسا بعد اثنين ، بل جسد واحد – فالذي جمعه الله ، لا يُفَرِّقُهُ إنسان ....» (مت ١٩ : ٣-١٢ ، مر ١٠ : ٢-١٢ ، لو ١٦ : ١٨-١٩) .

وإذا كانت تكاليف الدعوة وأعباء الرسالة قد شغلت المسيح عن أمّه أحياناً ، فما كان ذلك يعني قط عقوقاً للأم أو إهمالاً للأسرة ، وإنما أراد المسيح أن يقرّر مبدأ أو قاعدة : أنّ قرابة العقيدة مقدّمة على كل قرابة : «وفيما هو يكلّم الجموع ، إذا أمّه وإخوته قد وقفوا خارجاً طالبين أن يُكَلِّمُوه ، فقال له واحد : هو ذا أمك وإخوتك واقفون خارجاً طالبين أن يُكلّموك ! فأجاب وقال للقائل له : من هي أمي ومن هم أخوتي ؟ ثم مدّ يده نحو تلاميذه وقال : ها أمي وإخوتي ، لأنّ من يصنع مشيئة أبي الذي في السموات هو أخي وأختي وأمي....» (مت ١٢ : ٤٦-٤٩ ، مر ٣ : ٣١-٣٥ ، لو ٨ : ١٩-٢١) .

وشبيه هذا بما روته سيرة محمد إذ شغلته الشواغل الكبرى عن أهل بيته ، وزهد في متاع الدنيا ، فلما اضطّربت قلوب نساء النبيّ جاء الجواب الرّباني الحاسم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن

obeikandi.com

يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ۝ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأحزاب: ٢٨ - ٣٢].

وعلى هذا يُفَسَّرُ قول المسيح: «وأعداء الإنسان أهل بيته. من أحب أباً وأماً أكثر مني فلا يستحقني، ومن أحب ابناً أو ابنة أكثر مني فلا يستحقني، ومن لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقني»، «إن كان أحد يأتي إليّ ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده، وإخوته وأخواته - حتى نفسه أيضاً، فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً»، «أتظنون أني جئت لأعطي سلاماً على الأرض؟ كلا أقول لكم - بل انقساماً! لأنّه يكون من الآن خمسة في بيت واحد منقسمين: ثلاثة على اثنين، واثنان على ثلاثة - ينقسم الأب على الابن، والابن على الأب، والأم على البنت، والبنت على الأم، والحماة على كنّتها، والكنّة على حماتها» (مت ١٠ : ٣٤-٣٨، لو ١٤ : ٢٦، لو ١٢ : ٥١-٥٣)!!

فطبيعة الدعوات أن يفتديها أصحابها بكل شيء..

وطبيعة العقائد أن تصل إلى الأعماق فتزيل من طريقها مادونها من أغيار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝﴾ [التغابن: ١٤، ١٥]، ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]. «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» (١).

---

١ - الحديث: رواه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه، وصححه السيوطي.

ولا تتعارض روابط الأسرة مع تبعات العقيدة في كل حين ، وإذا اختلفت العقائد فينبغي ألا تتمزّق الوشائج - ما دامت العقيدة مصونة لم تُمتهن : ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان : ١٤ ، ١٥] .

وقد ظلت علاقة المسيح بأمّه علاقة البرّ والرحمة إلى آخر يوم : «وكانت واقفات عند صليب يسوع أمه ، وأخت مريم زوجة كلوبا ومريم المجدلية . فلما رأى يسوع أمه والتلميذ الذي كان يحبه واقفاً قال لأمه : يا امرأة ، هو ذا ابنك ، ثم قال للتلميذ : هو ذا أمك ... و من تلك الساعة أخذها التلميذ إلى خاصته » (يو ١٩ : ٢٥-٢٧) .

﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم : ٣٢ ، ٣٣] ، ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ﴾ [الأحزاب : ٦] .

وسارت كلمات رسل المسيح في نفس الاتجاه ، تكرم المرأة وتشدّ بنيان الأسرة ، وترسي خطوطاً لبعض الآداب والتقاليد : «... وأريد أن تعلموا أنّ رأس كل رجل هو المسيح ، وأما رأس المرأة فهو الرجل ، ورأس المسيح هو الله ! كلّ رجل يصلّي أو يتنبّأ وله على رأسه شيء - يشين رأسه ، وأما كلّ امرأة تصلّي أو تتنبّأ ورأسها غير مُغطّى - فتشين رأسها ، لأنّها والمحلوقة شيء واحد بعينه !! إذ المرأة إن كانت لا تتغطّى فليُقصّ شعرها ، وإن كان قبيحاً بالمرأة أن تقصّ أو تحلق فلتتغط .. لأنّ الرجل ليس من المرأة ، بل المرأة من الرجل، ولأنّ **الرجل لم يخلق من أجل المرأة بل المرأة من أجل الرجل** . لهذا ينبغي للمرأة أن يكون لها سلطان على رأسها من أجل الملائكة ، **غير أن الرجل ليس من دون المرأة ولا المرأة من دون الرجل في الرب ، لأنّه كما أنّ المرأة هي من الرجل هكذا الرجل أيضاً هو بالمرأة ، ولكن جميع الأشياء هي**

من الله ... لم ليست الطبيعة نفسها تُعلّمكم أن الرجل إن كان يرخي شعره فهو يحب الله ، وأما المرأة إن كانت ترخي شعرها فهو مجد لها لأن الشعر قد أعطى لها عوض برقع » (كورنثوس ١١ : ٣-١٥) !

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة : ٢٢٨] .

ولئن آثر بولس الرسول جانب الترهّب ، إلا أنّه لا يستنكر الزواج بل يراه حسناً : «... فحسنٌ للرجل أن لا يمسّ امرأة ، ولكن لسبب الزنا ليكن لكل واحد امرأته وليكن لكل واحدة رجلها ! لِيُوف الرجل المرأة حقها الواجب ، وكذلك المرأة أيضاً الرجل ...

ولكن أقول **لغير المتزوجين وللأرامل** : إنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا ، ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم فليتزوّجوا ، **لأن التزوّج أصلح من التحرّق!!**

وأما **المتزوّجون** فأوصيهم - لا أنا بل الرب - أن لا تفارق المرأة رجلها ، وإن فارقته فلتلبث غير متزوّجة أو لتصالح رجلها . ولا يترك الرجل امرأته .

وأما **الباقون** : فأقول لهم - أنا لا الرب - إن كان أخ له امرأة غير مؤمنة وهي ترتضي أن تسكن معه فلا يتركها ، والمرأة التي لها رجل غير مؤمن وهو يرتضي أن يسكن معها فلا تتركه ، لأنّ الرجل غير المؤمن مقدّس في المرأة والمرأة غير المؤمنة مقدّسة في الرجل ، وإلا فأولادكم نجسون ! وأما الآن فهم مُقدّسون ، ولكن إن فارق غير المؤمن فليفارق .. ليس الأخ والأخت مُستعبداً في مثل هذه الأحوال ، ولكن الله قد دعانا في السلام . لأنه كيف تعلمين أيتها المرأة هل تخلّصين الرجل ، أو كيف تعلم أيها الرجل هل تخلّص المرأة ؟؟ غير أنه كما قسم الله لكلّ واحد - كما دعا الرب كلّ واحد ، هكذا ليسلك ، وهكذا أنا آمر في جميع الكنائس ..

وأما **العذارى** : فليس عندي أمر من الرب فيهن ، ولكنني أعطي رأياً كمن رحمه الرب أن يكون أميناً ، فأظن أنّ هذا حسن لسبب الضيق الحاضر - أنّه حسن للإنسان أن يكون هكذا : أنت مرتبط بامرأة فلا تطلب الانفصال ، أنت منفصلٌ عن امرأة فلا تطلب امرأة ! لكنك إن تزوجت لم تخطئ ، وإن تزوّجت العذراء لم تخطئ ، ولكن مثل هؤلاء يكون لهم ضيق في الجسد ، وأما أنا فإني أشفق عليكم .. غير المتزوج يهتمّ في ما للربّ كيف يرضي الربّ ، وأما المتزوّج فيهتمّ في ما للعالم كيف يرضي امرأته ! إنّ بين الزوجة والعذراء فرقا : غير المتزوّجة تهتمّ في ما للربّ لتكون مقدّسة جسداً وروحاً ، وأما المتزوّجة فتهتمّ في ما للعالم كيف ترضي رجلها ! هذا أقوله لخيركم - ليس لكي ألقي عليكم وهقاً - بل لأجل اللياقة والمثابرة للرب من دون ارتباك . ولكن إن كان يظن أنه يعمل بدون لياقة نحو عذرائه إذا تجاوزت الوقت - وهكذا لزم أن يصير ، فليفعل ما يريد ! إنه لا يخطئ ، فليتزوّجا . وأما من أقام راسخاً في قلبه وليس له اضطرار بل له سلطان على إرادته وقد عزم على هذا في قلبه أن يحفظ عذراءه فحسناً يفعل . **إذن من زوّج فحسناً يفعل ، ومن لا يُزَوِّج يفعل أَحسن** . المرأة مرتبطة بالناموس ما دام رجلها حيًّا ، ولكن إن مات رجلها فهي حرّة لكي تتزوّج من تريد في الربّ فقط - ولكنها أكثر غبطة إن لبثت هكذا بحسب رأيي ، وأظن أني أنا أيضاً عندي روح الله » (١ كورنثوس : ٧ كله).

وقد تكرّرت وصية رسل المسيح للرجال بحسن معاملة النساء ، وللنساء بحسن معاملة الرجال ، فهذا بولس يقول :

«أيها **النساء** : اخضعن لرجالكن كما للرب ، ولأن الرجل هو أساس المرأة كما أن المسيح أيضاً رأس الكنيسة وهو مخلّص الجسد . ولكن كما تخضع الكنيسة للمسيح ، كذلك النساء لرجالهن في كل شيء ..

أيها **الرجال** : أحبّوا نساءكم كما أحب المسيح أيضاً الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها لكي يقدّسها مطّهراً إياها بغسل الماء بالكلمة ، لكي يحضرها لنفسه كنيسة مجيدة ... كذلك يجب على الرجال أن يحبّوا نساءهم كأجسادهم ، من يحب امرأته يحب نفسه ، فإنّه لم يبغض أحد جسده قط بل يقوته ويُربِّيه .. ومن أجل هذا يترك الرجل أباه وأُمه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسداً واحداً . هذا السر عظيم ، ولكنني أنا أقول من نحو المسيح والكنيسة ، وأما أنتم الأفراد : فليحب كلّ واحد امرأته هكذا كنفسه ، وأما المرأة فلتحبّ رجلها ...

«أيتها **الأولاد** : أطيعوا والديكم في الرب لأن هذا حق . أكرم أباك وأمك - التي هي أول وصية بوعد ، لكي يكون لكم خير وتكونوا طوال الأعمال على الأرض . وأنتم أيها **الآباء** لا تغيظوا أولادكم ، بل ربّوهم بتأديب الرب وإنذاره ».

«أيها النساء : اخضعن لرجالكن كما يليق في الرب ! أيها الرجال : أحِبُّوا نساءكم ، ولا تكونوا قساة عليهن . أيها الأولاد : أطيعوا والديكم في كل شيء ، لأن هذا مرضيّ في الرب . أيها الآباء : لا تغيظوا أولادكم فتفشلوا » (إفسوس ٥ : ٢٢-٣٣ ، ٦ : ١-٤ ، كولوسي ٣ : ١٨-٢١) .

وفي رسالة بطرس الأولى :

«كذلك أيتها النساء كنّ خاضعات لرجالكن - حتى وإن كان البعض لايطيعون الكلمة ، يُربَحون بسيرة النساء بدون كلمة - ملاحظين سيرتكن الطاهرة بخوف . ولا تكن زينتكن الزينة الخارجية - من ضفر الشعر والتحلي بالذهب ولبس الثياب ، بل إنسان القلب الخفيّ في العديمة الفساد ، زينة الروح الوديع الهادئ الذي هو قدّام الله كثير الثمن ! فإنه هكذا كانت قديماً النساء القديسات أيضاً المتوكلات على الله - يزينّ أنفسهن خاضعات لرجالهن ، كما كانت سارة تطيع إبراهيم داعية إياه سيدها ، التي صرتن أولادها صانعات خيراً وغير خائفات خوفاً البتّة .

كذلكم أيها الرجال : كونوا ساكنين بحسب الفطنة مع الإناء النسائي كالأضعف ، معطين إياهن كرامة كالوارثات أيضاً معكم نعمة الحياة لكي لا تُعاق صلواتكم » (بطرس ٣ : ١-٧) .

والنصوص الواردة في الأناجيل المتداولة لا تجيز **الطلاق إلا لعلّة الزنا** . ولا يرتضي الكاثوليك أن يسمّوا الطلاق في هذه الحالة طلاقاً ، وإنما هو افتراق جسماني فحسب : «فقد قيل من طلّق امرأته فليدفع إليها كتاب طلاق ، وأما أنا فأقول لكم : إن من طلّق امرأته - إلا في حالة الزنا - فقد عرّضها للزنا ، ومن تزوّج مطلقّته فقد زنا» ، «ودنا إليه الفريسيون ليجرِّبوه ، وقالوا : هل يحلّ للرجل أن يطلّق زوجته لكل علّة ؟ فأجاب قائلاً : أما قرأتم أنّ الخالق من البدء خلقهما ذكراً وأنثى ؟ وأنّه قال : لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلزم امرأته ويصيران كلاهما جسداً واحداً ، ومن ثمَّ فليسا هما اثنين بعد ، بل جسدٌ واحد - وإذن فما جمعه الله فلا يُفَرقهُ إنسان ! فقالوا له : **لماذا إذن أوصى موسى بأن تُعطى كتاب طلاق وتخلى** ؟ فقال لهم : إنَّه لقساوة قلوبكم أذن لكم موسى أن تطلّقوا نساءكم ، ولكن في البدء لم يكن الأمر كذلك . وأنا أقول لكم : من طلّق امرأته - إلا لعلّة الزنا- وتزوج أخرى فقد زنى ، ومن تزوّج مطلقة فقد زنى . فقال له تلاميذه : **إن كانت هذه حال الرجل مع امرأته ، فالأولى له أن لا يتزوج** ! فقال لهم : ليس الجميع يفهمون هذا الكلام ، إلا الذين وهب لهم أن يفهموا » ! وقد أكد بولس في رسائله هذا المعنى ، وشرح الأب لويس برسوم الفرنسسكاني وجهة نظر الكاثوليك بقوله : «لما كان التعليم بأن لا طلاق إطلاقاً قد جاء واضحاً جليًّا في ثلاثة من كتبة العهد الجديد ممن طرقوا هذا الموضوع - وهم مرقس ولوقا والرسول بولس ، وقد جاء غامضاً في كتاب واحد - ألا و هو البشير متى (الذي أورد استثناء حالة الزنا من حكم منع الطلاق بتاتاً) ، فكان لا مناص من تفسير تعليم متى هذا الغامض بتفسير الرسل الثلاثة المذكورين الواضح - (الذي لم يورد استثناء) ، وإلا و جب القول بأن هناك تضارباً وخلافاً - وهذا محال ... وعلى

ذلك نقول إن المقصود بالطلاق في حالة الزنا في نص متى ، لا الطلاق بحصر المعنى - الذي فيه يتم فسخ العهد الزواجي ، بل الطلاق باتساع المعنى - أي الافتراق وهجر الزوج الزاني اللذين لا يتمّ فيهما فسخ عقد الزواج . وأيضاً لو كان الطلاق الذي يأذن به السيد المسيح في حالة الزنا هو نفس الطلاق الذي كان يأذن به موسى - أي الطلاق بحصر المعنى ، لما كان هناك أي فرق جوهري بين الشريعتين الجديدة والعتيقة ولما كان المسيح قد أصلح بهذا الشأن شيئاً أو أتى بجديد . ولكن مثل هذا التفسير مناقض لكل القرائن .. ولما كان من الواضح أنّ قوله : ومن تزوّج مطلقة فقد زنى - يشمل كل مطلّقة سواء أكانت زانية أم غير زانية ، أصبح من الواضح أيضاً أن سبب ارتكاب الزنا من جهة من يتزوج بمطلّقة هو دوام زواج المرأة برجلها الأول وعدم انفساخه بالطلاق » (مت ١٩ : ٣-١٢ ، مر ١٠ : ٢-١٢ ، لو ١٦ : ١٨ ، رو ٧ : ٢-٣ ، ١ كور ٧ : ١١)[1] .

وهكذا تقوم العلائق بين أفراد الأسرة - رجالاً ونساء ، كباراً وصغاراً - على التضامن والتراحم والتواصي بالخير والمعروف ...

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء : ١] .

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم : ٢١] .

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان : ٧٤] .

١- لويس برسوم : حياة يسوع المسيح ج٢ ص ٢٣ - ٢٦.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران : ١٩٥] .

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء : ٣٤] .

ويسوق المسيح في الأناجيل المتداولة ، كثيراً من القصص حول العبيد والسادة ، فما موقف المسيحية تجاه الرقّ والأرقّاء ؟؟

«... يشبه ملكوت السموات إنساناً ملكاً أراد أن يحاسب عبيده ، فلما ابتدأ في المحاسبة قُدِّمَ إليه واحد مديون بعشرة آلاف وزنة ، وإذ لم يكن له ما يوفي – أمر سيده أن يباع هو وامرأته وأولاده كل ما له ويوفي الدين . فخرَّ العبد وسجد له قائلاً : يا سيد تمهل عليّ فأوفيك الجميع ! فتحنن سيد ذلك العبد وأطلقه وترك الديْن . و لما خرج ذلك العبد وجد واحداً من العبيد رفقائه كان مديوناً له بمائة دينار ، فأمسكه وأخذ بعنقه قائلاً : أوفني مالي عليك ، فخرّ العبد رفيقه على قدميه وطلب إليه قائلاً: تمهّل عليّ فأوفيك الجميع ! فلم يرد ، بل مضى وألقاه في سجن حتى يوفّي الديْن .. وغضب سيده وسلَّمه إلى المعذّبين حتى يوفي كل ما عليه . فهكذا أبي السموي يفعل بكم إن لم تتركوا من قلوبكم كل واحد لأخيه زلاَّته » (مت ١٨ : ٢٣-٢٥) !

«كان إنسان رب بيت غرس كرمًا وأحاطه بسياج ، وحفر فيه معصرة وبنى برجاً ، وسلّمه إلى كرّامين وسافر . ولما قرب وقت الإثمار ، أرسل عبيده إلى الكرامين ليأخذ أثماره ، فأخذ الكرّامون عبيده وجلدوا بعضاً ورجموا بعضاً ! ثم أرسل أيضاً عبيداً آخرين أكثر من الأولين ففعلوا بهم كذلك ، فأخيراً أرسل إليهم ابنه ... » (مت ٢١ : ٣٣-٣٦ ، لو ٢٠ : ٩-١٢) !

«... يشبه ملكوت السموات إنساناً ملكاً صنع عرساً لابنه ، وأرسل عبيده ليدعوا المدعوين إلى العرس - فلم يريدوا أن يأتوا ، فأرسل أيضاً عبيداً آخرين .. ولكنهم تهاونوا .. والباقون أمسكوا عبيده وشتموهم وقتلوهم » (مت ٢٢ : ٢-٦) .

«وكأنما إنسان مسافر دعا عبيده وسلّمهم أمواله ، فأعطى واحد خمس وزنات وآخر وزنتين وآخر وزنة - كل واحد على قدر طاقته ، وسافر للوقت . فمضى الذي أخذ الخمس وزنات وتاجر بها فربح خمس وزنات أخر ، وهكذا الذي أخذ الوزنتين ربح أيضاً وزنتين أخريين . وأما الذي أخذ الوزنة فمضى وحفر في الأرض وأخفي فضّة سيده .. وبعد زمان طويل أتى سيد أولئك العبيد وحاسبهم : فجاء الذي أخذ الخمس وزنات وقدّم خمس وزنات أخر قائلاً : يا سيد خمس وزنات سلّمتني - هوذا خمس وزنات أخر ربحتها فوقها . فقال له : نعمّا أيها العبد الصالح والأمين ، كنت أميناً في القليل فأقيمك على الكثير ، ادخل إلى فرح سيدك ! ثم جاء الذي أخذ الوزنتين وقال : يا سيد وزنتين سلمتني - هو ذا وزنتان أخريان ربحتهما فوقهما . قال له سيده : نعمّـا أيها العبد الصالح والأمين .. ! ثم جاء أيضاً الذي أخذ الوزنة الواحدة وقال : يا سيد عرفت أنك إنسان قاس تحصد حيث لم تزرع ، وتجمع من حيث لم تبذر ، فخفت ومضيت وأخفيت وزنتك في الأرض - هو ذا الذي لك . فأجاب سيده وقال له : أيها العبد الشرير والكسلان عرفت أني أحصد حيث لم أزرع وأجمع من حيث لم أبذر فكان ينبغي أن تضع فضتي عند الصيارفة فعند مجيئي كنت آخذ الذي لي مع ربا !! فخذوا منه الوزن وأعطوها للذي له العشر وزنات ، لأنّ كلّ من له يُعطى فيزداد ، ومن ليس له فالذي عنده يؤخذ منه ! والعبد البطّال اطرحوه إلى الظلمة الخارجية .. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان» (مت ٢٥ : ١٤-٣٠ ، لو ١٩ : ١١-٢٧) !

«ومن منكم له عبد يحرث أو يرعى ، ويقول له إذا دخل من الحقل : تقدّم سريعاً واتّكئ ! بل ألا يقول له : أعدد ما أتعشّى به ، وتمنطق واخدمني حتى آكل وأشرب ، وبعد ذلك تأكل وتشرب أنت ! .. فهل لذلك العبد فضل لأنه فعل ما أُمر به ، لا أظن ! كذلك أنتم أيضاً ، متى فعلتم كل ما أمرتم به فقولوا : إننا عبيد بطّالون ، لأننا إنما عملنا ما كان يجب علينا ! » (لو ١٧ : ٧-١٠) .

هل يمكن أن تُتَّخَذَ هذه الأمثال دلالة على أن المسيح يجيز الرق ، ويقرّ هذه المعاملة للأرقاء ؟؟

إنّ دلالة الاستنكار الضمني لتلك العلاقة بين السادة والعبيد بادية في معظم الأمثال التي يسوقها المسيح من هذا اللون - وخاصة في المثلين الأخيرين !! وما كانت رسالة المحبة لترضى باستعباد الناس للناس واستبداد الناس بالناس !

وأعتقد أنّ المسيح لم يشأ أن يتعرض لهذا الوضع الاجتماعي تعرّضاً مباشراً ، فهو وضع تاريخي له مكانه في التدرّج الإنسان الطويل ... وإنما ترك لأصول المسيحية أن تنضج ثمرتها وتنتج أثرها عن طريق التطوّر الهادئ البطيء ..

ذلك أن الرقّ يعتبر ركناً لنظام اجتماعي واقتصادي معيّن ، والأسلم أن ينهار هذا الركن تلقائيًّا بعد أن يتم الإعداد للطور الاجتماعي الجديد !

كذلك كانت سنّة الإسلام - مع خطوات أكثر تفصيلاً لتحرير الرقيق القائم ، وتضييق موارد الرق في المستقبل ، وتهيئة النفوس والأذهان وأوضاع المجتمع والتشريع لاستقبال المجتمع الحرّ المتساوي ، المتكافل المتضامن ، الذي لايستعبد فيه الإنسان بني الإنسان وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً !! ولا يتأتى أن يؤخذ من مثل يضربه القرآن بعبد مملوك إجازة الإسلام للرق كمبدأ مقرر ثابت : ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [النحل : ٧٥] .

وهي نفس القضية بالنسبة للأمثال التي تحدّث بها المسيح .

وعلى هذا المنوال ساير رسل المسيح الأوضاع كما هي ، حتى تتغيّر من الجذور والأعماق برسالة المحبة المسيحية ، فكتب بولس الرسول : «أيها العبيد : أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح ، لا بخدمة العين كمن يرضي الناس بل كعبيد المسيح ، عالمين مشيئة الله من القلب ، خادمين بنيّة صالحة كما للرب ليس للناس ، عالمين أن مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الربّ - عبداً كان أم حرًّا . وأنتم أيها السادة : افعلوا هذه الأمور تاركين التهديد ، عالمين أن سيدكم أنتم أيضاً في السموات وليس عنده محاباة » (إفسوس ٦ : ٥-٩) !

وفي رسالة أخرى كان بولس أصرح في تقرير العدالة والمساواة بين السادة والعبيد : «أيها العبيد : أطيعوا في كل شيء سادتكم حسب الجسد ، لا بخدمة العين كمن يرضي الناس بل ببساطة القلب خائفين الرب ، وكل ما فعلتم فاعملوا من القلب للرب ليس للناس ، عالمين أنكم من الرب ستأخذون جزاء الميراث لأنكم تخدمون الرب المسيح ، وأما الظالم فسينال ما ظلم به وليس محاباة .

أيها السادة : قدّموا للعبد العدل والمساواة ، عالمين أن لكم أيضاً سيداً في السموات ». «**ليس يهودي ولا يوناني ، ليس عبد ولا حر ، ليس ذكر وأنثى - لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع**» (كولوسي ٣ : ٢٢-٢٥ ، ٤ : ١ ، غلاطية ٣ : ٢٨) .

إذن فقد اختار رسل المسيح ألا يصطدموا بأوضاع المجتمع - كما لم يشاءوا أن يصطدموا بسلطان الحكم - حتى لا يسيئ فهم رسالتهم أحدٌ ، ولا تنفر منها نفس ، أو تحاربها سلطة : «جميع الذين هم عبيد تحت نير : فليحسبوا سادتهم مستحقين كل إكرام ، **لئلا يُفترى على اسم الله وتعليمه** . والذين لهم سادة مؤمنون لايستهينون بهم - لأنهم إخوة ، بل ليخدموهم أكثر ، لأن الذين يتشاركون في الفائدة هم مؤمنون ومحبوبون » ، «والعبيد أن يخضعوا لسادتهم ويرضوهم في كل شيء غير

مناقضين ، غير مختلسين بل مقدّمين كل أمانة صالحة - **لكي يزينوا تعليم مخلّصنا الله في كل شيء**» (١ تيموثاوس ٦ : ١-٢ ، تيطس ٢ : ٩-١٠) !!

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنفال : ٧٠] .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات : ١٣] .

بقيت المشكلة الدقيقة الخطيرة .. **مشكلة الأغنياء والفقراء** ، مشكلة تفاوت الثراء وصراع الطبقات ...

«ودخل يسوع إلى هيكل الله ، وأخرج جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون في الهيكل ، وقلب موائد الصيارفة وكراسي باعة الحمام ! وقال لهم : مكتوب : بيتي بيت الصلاة يدعى - وأنتم جعلتموه مغارة لصوص !! »، «لم يدع أحد يجتاز الهيكل بمتاع »! « ... ووجد في الهيكل الذين كانوا يبيعون بقراً وغنماً وحماماً ، والصيارف جلوساً . فصنع سوطاً من حبال ، وطرد الجميع من الهيكل : الغنم والبقر ، وكب دراهم الصيارف وقلب موائدهم ، وقال لباعة الحمام : ارفعوا هذه من هنا ، ولا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة »!! (مت ٢١ : ١٢-١٣ ، مر ١١ : ١٥-١٧ ، لو ١٩ : ٤٥ - ٤٦ ، يو ٢ : ١٤-١٦)

ترى هل هذه نظرة المسيح إلى المال والتجارة ، والصيارف والدنانير - في بيت الله المقدّس وحده ... أم هي نظرته إليها في كل مكان ؟؟

«لاتكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ ، وحيث ينقّب السارقون ويسرقون ! بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لا يُفسد سوس ولا صدأ ، وحيث لا يُنقّب سارقون ولا يسرقون ، لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضاً ! ...

لا يقدر أحد أن يخدم سيدين ، لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر ، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر . لاتقدرون أن تخدموا الله والمال ! لذلك أقول لكم : لاتهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ، ولا لأجسادكم بما تلبسون . أليست الحياة أفضل من الطعام ، والجسد أفضل من اللباس ؟ انظروا إلى طيور السماء : إنها لا تزرع ولاتحصد ولا تجمع إلى مخازن ، وأبوكم السماوي يقوتها ! ألستم أنتم بالحرّي أفضل منها ؟ ومن منكم إذا اهتمّ يقدر أن يزيد على قامته ذراعاً واحدة ؟ ولماذا تهتمّون باللباس ؟ تأمّلوا زنابق الحقل كيف تنمو - لا تتعب ولا تغزل ، ولكن أقول لكم إنه ولا سليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها ! فإن كان عشب الحقل الذي يوجد اليوم ويطرح غدا في التنوّر يلبسه الله هكذا ، أفليس بالحرّي جدًّا يلبسكم أنتم يا قليلي الإيمان ؟ فلا تهتموا قائلين : ماذا نأكل ؟ أو ماذا نشرب : أو ماذا نلبس ؟ - فإن هذه كلها تطلبها الأمم ، لأنّ أباكم السماوي يعلم أنّكم تحتاجون إلى هذه كلها ، لكن اطلبوا أولاً ملكوت الله وبرّه ، وهذه كلها تُزاد لكم . فلا تهتمّوا للغد ، لأنّ الغد ، يهتم بما لنفسه ، يكفي اليوم شرّه! »
(مت: ٦ : ١٩-٣٤، لو ١٢ : ٢٢-٣١) .

هذه الكلمات دفعت الدكتور شويتزر Schweitzer - ومن ينحى منحاه - أن «يرى أن السيد المسيح أوصى الناس بوصاياه لاعتقاده أن الساعة قريبة ، وأنّ الدنيا التي يهجرونها مقضى عليها بالفناء في مدى سنوات ! فكل ما أوصى به الناس فالمفهوم منه أنهم على سفر ، وأن الزاد للعالم الآخر من غير هذا الزاد الذي يدّخره المدّخرون للدنيا الزائلة !! .

وفي اعتقادنا أنه لا محلّ للخلاف على الوصايا التي وجّهها المسيح لتلاميذه المتجرِّدين لنشر الدعوة ، فإنّ كل دعوة في عصر المسيح أو في عصرنا هذا ، وفي جهاد الدين أو جهاد الدنيا - تحتاج من الدعاة إلى مثل ذلك التجرد ومثل ذلك الانقطاع عن الشواغل الأخرى ... إنما الخلاف على الوصايا حين تتجه إلى غير

التلاميذ والرسل ... لا حاجة بنا إلى الفرض والاحتمال ، فإنّ المسيح قد غيّر المحور حين قبل إنفاق الدنانير في عطر تُمسح به قدماه ، وحين قَبِلَ أن يشهد الأعراس ويضرب المثل لأتباعه في أفراح الحياة ، وفي براءة كل فرح يأتي من القلب ويسرّ الجسد ولايحزن الروح »[1] !

والأستاذ العقاد يشير بهذا إلى ما ورد في الأناجيل المتداولة : «وفيما كان يسوع في بيت عنيا في بيت سمعان الأبرص ، تقدّمت إليه امرأة معها قارورة طيب كثير الثمن ! فسكبته على رأسه وهو متّكئ ، فلما رأى تلاميذه ذلك اغتاظوا قائلين : لماذا هذا الإتلاف ؟ لأنه كان يمكن أن يباع هذا الطيب بكثير ويعطي للفقراء ! فعلم يسوع وقال لهم : لماذا تُزعجون المرأة - فإنها قد عملت بي عملاً حسناً ، لأنّ الفقراء معكم في كل حين وأما أنا فلست معكم في كل حين ! فإنها إذ سكبت هذا الطيب على جسدي ، إنما فعلت ذلك لأجل تكفيني ! الحق أقول لكم : حيثما يكرز بهذا الإنجيل في كل العالم ، يُخبر أيضاً بما فعلته هذه تذكاراً لها » (مت ١٦ : ٦-١٣ ، مر ١٤ : ٣-٩ ، لو ٧ : ٣٦-٣٩ ، يو ١٢ : ١-٨) !!

«وصنع له لاوي ضيافة كبيرة في بيته ، والذين كانوا متكئين معهم كانوا جمعاً كثيراً من عشّارين وآخرين »! «وفيما هو متكئ في بيته كان كثيرون من العشّارين والخطاة يتكئون مع يسوع وتلاميذه » (لو ٥ : ٢٩ ، الرواية كاملة مت ٩ : ٩-١٣ ، مر ٢ : ١٣-١٧ ، لو ٥ : ٢٧-٣٢) .

«وفي اليوم الثالث كان عرس في قانا الجليل ، وكانت أم يسوع هناك ، ودعى أيضاً يسوع وتلاميذه إلى العرس . ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع له : ليس لهم خمر . قال يسوع : مالي ولك يا امرأة ، لم تأت ساعتي بعد . قالت أمه للخدّام : مهما قال لكم فافعلوه .. قال لهم يسوع : املأوا الأجران ماء - فملأوها إلى فوق ، ثم

---

١ - العقاد : عبقرية المسيح - ص ١٤٣ ، ١٤٥.

قال لهم : استقوا الآن وقدّموا إلى رئيس المتكأ - فقدموا . فلما ذاق رئيس المتكأ الماء المتحوّل خمراً ... إلخ » (يو ٢ : ١-١١) .

والحق أن الدعوة إلى الزهد يستفيد منها الفقراء ، لا الأغنياء - كما يشيع ! إذ أنّ الزاهد ينبغي أن يملك أولاً ما يزهد فيه - ثم يزهد ، وحين يملك فلن يكون سبيله إلى الزهد أن يلقي ماله في البحر - وإنما سينفقه بما يعود بالنفع على المجموع!

فليس الزهد تخديراً لنفوس المحرومين ، بل هو تنبيه لعواطف القادرين والمالكين !! فلو زهد الجميع لكان رأس المال مشتركاً بين الجميع ، ولو أصرّ قوم على تكديس المال - فهم وحدهم المنهيّون عن الكنز والترف ، المأمورون بالزهد والبذل .. وليس الفقراء الذين لا يجدون ما فيه يزهدون !!

وما أكثر ما نعى المسيح على الأغنياء ، وما أكثر ما طيّب خواطر الفقراء .. لينخلع الأولون من فائض ثرواتهم ، وليعتز الآخرون بأنفسهم وإيمانهم - ومن هنا يقترب هؤلاء وهؤلاء !

«وإذا واحد تقدّم وقال له : أيها المعلم الصالح ، أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية ؟ فقال له : لماذا تدعوني صالحاً ؟ ليس أحد صالحاً إلا واحد - وهو الله ، ولكن إن أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا . قال له : أية الوصايا ؟ فقال يسوع : لا تقتل ، لاتزن ، لا تسرق ، لا تشهد بالزور ، أكرم أباك وأمك وأحب قريبك كنفسك . قال له الشاب : هذه كلها حفظتها منذ حداثتي ، فماذا يعوزني بعد؟؟ قال له يسوع : إن أردت أن تكون كاملاً ، فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني ! .. فلما سمع الشاب الكلمة مضى حزيناً ، لأنه كان ذا أموال كثيرة ! فقال يسوع لتلاميذه : الحق أقول لكم : إنه يعسر أن يدخل غنيّ إلى ملكوت السموات ! وأقول لكم أيضاً : إنّ مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنيّ على ملكوت الله ! فلما سمع تلاميذه بُهتوا جدًّا قائلين :

إذن من يستطيع أن يخلص ؟ فنظر إليهم يسوع وقال لهم : هذا عند الناس غير مستطاع ، ولكن عند الله كل شيء مستطاع ! ... فقال بطرس : ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك ، فقال لهم : الحق أقول لكم : أن ليس أحد ترك بيتا أو والدين أو إخوة أو امرأة أو أولاداً من أجل ملكوت الله ، إلا ويأخذ في هذا الزمان أضعافاً كثيرة ، وفي الدهر الآتي الحياة الأبدية » (مت ١٩ : ١٦-٢٦ ، مر ١٠ : ١٧-٢٧ ، لو ١٨ : ١٨-٢٨) .

«... ثم يقول الملك للذين عن يمينه : تعالوا يا مباركي أبي ، رثوا الملكوت المعدَّ لكم منذ تأسيس العالم - لأني جعت فأطعمتموني ! عطشت فأسقيتموني ! كنت غريباً فآويتموني ! عرياناً فكسيتموني ! مريضاً فزرتموني ! محبوساً فأتيتم إليّ ! فيجبيه الأبرار حينئذ قائلين : يارب متى رأيناك جائعاً فأطعمناك ! أو عطشاناً فسقيناك ؟ ومتى رأيناك غريباً فآويناك ! أو عرياناً فكسوناك ؟ ومتى رأيناك مريضاً أو محبوساً فأتينا إليك ؟ فيجيب الملك ويقول لهم : الحق أقول لكم : بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر - فبي فعلتم !!

ثم يقول أيضاً للذين عن اليسار : اذهبوا عنى يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدّة لإبليس وملائكته - لأني جعت فلم تطعموني ! عطشت فلم تسقوني ! كنت غريباً فلم تأووني ! عريانا فلم تكسوني ! مريضاً ومحبوساً فلم تزوروني ! حينئذ يجيبونه هم أيضاً قائلين : يا رب متى رأيناك جائعاً ، أو عطشاناً ، أو غريباً ، أو عرياناً ، أو مريضاً ، أو محبوساً ولم نخدمك ؟؟ فيجيبهم قائلاً : الحق أقول لكم : بما أنكم لم تفعلوه بأحد هؤلاء الأصاغر - فبي لم تفعلوا ... فيمضي هؤلاء إلى عذاب أبدي ، والأبرار إلى حياة أبدية »!! (مت ٢٥ : ٣٤-٤٦) .

هكذا يرفع الله جزاء من أدُّوا حق الفقير والمسكين ..

والقرآن كذلك يجعل كل ما يقدّم الإنسان من خير واقعاً في يد الله العليّ الأعلى: ﴿إِن تُقْرِضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن : ١٧] .

ولايترك المسيح حق الفقير حتى يوصي به في موائد الأغنياء وولائمهم :

«وقال أيضاً للذي دعاه : إذا صنعت غداءً أو عشاء ، فلا تدع أصدقاءك ولا إخوتك ولا أقرباءك ولا الجيران الأغنياء ، لئلا يدعوك هم أيضاً فتكون لك مكافأة! بل إذا صنعت ضيافة ، ادع المساكين الجدع العرج العمي - فيكون لك الطوبى إذ ليس لهم حتى يكافوك ، لأنك تكافى في قيامة الأبرار»!

فإذا أدّى الغني حق الفقير ، فهو مرضيّ العمل مبارك المال ، «ثم دخل واجتاز في أريحا . وإذا رجل اسمه زكّا - وهو رئيس للعشارين وكان غنيًّا ، وطلب أن يرى يسوع من هو ، ولم يقدر مع الجمع لأنه كان قصير القامة ، فركض متقدّماً وصعد إلى جميزة لكي يراه ! .. فلما جاء يسوع إلى المكان ، نظر إلى فوق فرآه وقال له : يا زكا أسرع وانزل لأنه ينبغي أن أمكث اليوم في بيتك ! فأسرع ونزل وقبّله فرحاً . فلما رأى الجميع ذلك تذمّروا قائلين : إنه دخل ليبيت عند رجل خاطئ ! فوقف زكا وقال للرب : ها أنا يا رب أعطي نصف أموالي للمساكين ، وإن كنت قد وشيت بأحد أردّ أربعة أضعاف !! فقال له يسوع : اليوم حصل خلاص لهذا البيت ، إذ هو أيضاً ابن إبراهيم . لأنّ ابن الإنسان قد جاء لكي يطلب يخلص ما قد هلك » (لو ١٤ : ١٢-١٤ ، ١٩ : ١-١٠) !

فالمسيحية تهتف بحق الفقير في مال الغني ، وتغري الغني بإيثار ما عند الله فهو خير أبقى مما يقدّمه من ماله للفقير .. ومعنى هذا أن يلتقي الأغنياء والفقراء عند مستوى من العدالة والتكافل ، وتنهشهم فوارق الترف والحرمان !!

فإذا توفّر مستوى معيشي مرتفع للجميع : ثمرة إنتاج ناجح وتوزيع عادل ، فهل يرفض الناس نعمة الله بدعوى الزهد ؟؟

إنّ الدين يأمر بالعمل والنشاط ، وهذا من شأنه أن يزيد الإنتاج والثروة ، ويأمر بالعدل والإحسان وهذا من شأنه أن تصل الأموال إلى مزيد من الأيدي – ومن هنا تظهر نعمة الله على عباد الله .

«ولكن الروح يقول صريحاً إنه في الأزمنة الأخيرة يرتدّ قوم عن الإيمان – تابعين أرواحاً مضلة وتعاليم شياطين ، في رياء أقوال كاذبة ، موسومة ضمائرهم ، مانعين عن الزواج ، وآمرين أن يمتنع عن أطعمة قد خلقها الله لتتناول بالشكر من المؤمنين وعارفي الحق . لأنّ كل خليقة الله جيدة ، ولا يرفض شيء إذا أخذ مع الشكر – لأنه يقدّس بكلمة الله والصلاة . إن فكّرت الإخوة بهذا تكون خادماً صالحاً ليسوع المسيح ، مُتربّياً بكلام الإيمان والتعليم الحسن الذي تتبعته . وأما الخرافات الدنسة العجائزية فارفضها ، وروّض نفسك للتوقى لأنّ **الرياضة الجسدية نافعة لقليل ، ولكن التقوى نافعة لكل شيء** : إذ لها موعد الحياة الحاضرة والعتيدة ، صادقة هي الكلمة ومستحقة كل قبول! » (١ تيموثاوس ٤ : ١-٩).

ما أنفسها من كلمات ... فليس الزهد بتحريم الحلال وإضاعة المال ، ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك ..

«... أنتم تعرفون كيف يجب أن يُتمثَّل بنا ، لأننا لم نسلك بلا ترتيب بينكم ، ولا أكلنا خبزاً مجاناً من أحد ، بل كنا نشتغل بتعب وكدٍّ ليلاً ونهاراً ، لكي لا نثقل على أحد منكم . ليس أن لا سلطان لنا ، بل لكي نعطيكم أنفسنا قدوة حتى تتمثلوا بنا ! فإننا أيضاً حين كنا عندكم أوصيناكم بهذا : أنه **إن كان أحد لا يريد أن يشتغل فلا يأكل أيضاً** ، لأننا نسمع أنّ قوماً يسلكون بينكم بلا ترتيب ، لا يشتغلون شيئاً بل هم فضوليون ! فمثل هؤلاء نوصيهم ونعظهم بربنا يسوع المسيح أن يشتغلوا بهدوء ويأكلوا خبز أنفسهم » (٢ تسالونيكي ٣ : ٦-١٢) !!

هذه إذن ليست رسالة الحرمان لذات الحرمان ، وليست رسالة التبطّل والقعود ..

إنها نور وحياة ...

وهي في هذه الأضواء جميعاً متكاملة ، مفهومة ، بغير انتقاص أو تشويه...

دعوة تصرف القلوب والعقول إلى ملكوت السموات ، فيتضاءل عندها متاع الحياة الدنيا - إذ قد تطلّعت إلى أفق أوسع وهدف أرفع ... ومن ثمّ يتداول الناس المال بينهم ، وقد برئوا من تكالب الذين جعلوا الدنيا غاية همهم ومبلغ علمهم ومنتهى آمالهم !

ويجتمع الأغنياء والفقراء على رب الأغنياء والفقراء ، ويتقاسمون نعم الله بالعدل فيما بينهم طلباً لنعيم الله ... وتكون (القبلة) الواحدة الجديدة هي أداة تفتيت الثروة ، وإدماج الطبقة مع الطبقة :

«وجلس يسوع تجاه الخزانة ، ونظر كيف يلقي الجمع نحاساً في الخزانة ، وكان أغنياء كثيرون يلقون كثيراً . فجاءت أرملة فقيرة - وألقت فلسين قيمتها ربع (آس)! فدعا تلاميذه ، وقال لهم : الحق أقول لكم : إنّ هذه الأرملة الفقيرة قد ألقت أكثر من جميع من ألقوا في الخزائن ، لأنّ الجميع من فضلتهم ألقوا ، وأما هذه فمن إعوازها ألقت كل ما عندها - كل معيشتها » (مر ١٢ : ٤١-٤٤ ، لو ٢١ : ١-٤) .

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص : ٧٧] ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد : ٢٧] .

وكان مجتمع التلاميذ ، هو المجتمع التكافل الذي حقّق تطبيق هذه المبادئ ...

أوصى المسيح الاثنى عشر حين أرسلهم : «مجاناً أخذتم ، مجاناً أعطوا ... لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم ، ولا مزوداً للطريق ، ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا - لأنّ الفاعل مستحق طعامه » (مت ١٠ : ٨-١٠ ، مر ٦ : ٨-٩ ، لو ٩ : ٣) .

«ولما كانت الساعة اتكأ والاثنا عشر رسولا معه ، وقال لهم : شهوة اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألم ، لأني أقول لكم : إني لا آكل منه بعد حتى يكمل في ملكوت الله ! ثم تناول كأساً وشكر - وقال : خذوا هذه واقتسموها بينكم ... وأخذ خبزاً وشكر - وكسر وأعطاهم قائلاً : هذا هو جسدي الذي يُبذل عنكم ... وقال لهم : حين أرسلتكم بلا كيس ولا مزود ولا أحذية ، هل أعوزكم كل شيء ؟ فقالوا : لا . فقال لهم : لكن الآن من له كيس فليأخذه ، ومزود - كذلك ، ومن ليس له فليبع ثوبه ويشتر سيفاً ! لأني أقول لكم : إنه ينبغي أن يتم فيّ أيضاً هذا المكتوب : وأُحصي مع أثمة - لأن ما هو من جهتي له انقضاء ! فقالوا : يا ربي هوذا هنا سيفان ، فقال : لهم يكفي » (لو ٢٢ : ١٤-١٩، ٣٥-٣٨) ! [1]

---

١ - والفصح كلمة عبرية معناها الاجتياز والعبور ، وعيد الفصح ذكرى لخروج بني إسرائيل من دار العبودية ونجاة أبكارهم - عندما أرسل الله ملكاً ليبيد أبكار المصريين جميعاً ، فلما مر ببيوت العبرانيين ورأى على أبوابها دم (الحمل الفصحى) جاز عنها وعبر ، وكان الله قد أمرهم أن يأخذوا في اليوم العاشر من شهر أبيب (نيسان) حملاً ذكراً صحيحاً حوليًّا من الضأن أو المعز ، فيحفظ إلى اليوم الرابع عشر منه - فيذبحه رب البيت بين بدء الغروب وتمامه ، ويأكله مع ذويه مشويًّا بخبز من الفطير مع أعشاب مرة . فإن كان عدد أفراد الأسرة أقل من العشرة - فعلى رب البيت أن يشرك فيه جاره ، ولا يتبقى منه شيء للغد : «سبعة أيام تأكلون فطيراً ، في اليوم الأول تخلون منازلكم من الخمير ، فإن كل من أكل خميراً من اليوم الأول إلى اليوم السابع تنقرض تلك النفس من إسرائيل . ويكون لكم في اليوم الأول احتفال مقدس ، وفي اليوم السابع احتفال مقدس ، لا يعمل فيها عمل - إلا ما يؤكل .. واحفظوا هذا اليوم مدى أجيالكم فريضة أبدية . في الشهر الأول ، في اليوم الرابع عشر منه بالعشي ، كلوا فطيراً إلى اليوم الحادي والعشرين من الشهر بالعشي ... وإذا قال لكم بنوكم: ما هذه العبادة؟ فقولوا : هي ذبيحة فصح للرب ، الذي عبر عن بيوت بني إسرائيل بمصر ، إذ ضرب المصريين وخلص بيوتنا» (خروج ١٢ : ١٥-٢٧) . وكان عيد الفصح أكبر أعياد اليهود، =

لقد اشترك المسيح مع تلاميذه في لقمة وشربة ، فغدت هذه الشركة من طقوس المسيحية : «وفيما كان يسوع يفيض بشراً وحناناً ، شاء أن يرسم سر القربان آية حبه العجيب ، وذبيحة عهده الجديد ... هذا هو جسدي ، هذا هو دمي - فما أعظم وأبسط هذه الكلمات ، التي بها صارت وتصير على مرّ الأجيال على أيدي الكهنة أعجوبة الاستحالة : استحالة جوهر الخبز إلى جسد المسيح ، واستحالة جوهر الخمر إلى دم المسيح ! ولا غرو ، فكلمة يسوع هي - أمس واليوم وإلى مدى الدهور ، كلمة الله الضابطة الكلّ ، الكلمة التي لا يمكن أن يقف دونها حائل وتنفيذ ما تشاء ... إذن يجب فهم تلك الكلمات : جسدي ودمي بمعناهما الحقيقي ، ولا سيما أن ليس هناك ما يشير من بعيد أو قريب إلى المعنى المجازي المزعوم »[1] !

ومارس تلاميذ المسيح بعد رفع المسيح تجربة المعيشة الجماعية :

«وكانوا يواظبون على تعليم الرسل ، والشركة ، وكسر الخبز ، والصلوات .. **وجميع الذين آمنوا كانوا معاً ، وكان عندهم كل شيء مشتركاً . والأملاك والمقتنيات كانوا يبيعونها ويقسمونها بين الجميع ، كما يكون لكل واحد احتياج .** وكانوا كل يوم يواظبون في الهيكل بنفس واحدة . وإذ هم يكسرون الخبز في البيوت ، كانوا يتناولون الطعام بابتهاج وبساطة قلب... »، «وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة ، ولم يكن أحد يقول : إنّ شيئاً من أمواله له ، بل كان عندهم

= وسمي أيضاً بعيد الفطر . وقد تطور الاحتفال به على مر السنين ، وأهم الطقوس الجديدة في العشاء الفصحي على عهد المسيح : أن تدار على المتكئين أربع كئوس خمر ، ويدار طست ماء لغسل الأيدي بعد الكأس الأولى تذكاراً لعبور البحر الأحمر . ويرمز الحمل الفصحي عند المسيحيين إلى حمل الله الذي يرفع خطيئة العالم - أي المسيح ، أما الفصح فهو تجديد وانتقال من حال إلى حال : «فألقوا عنكم الخمير العتيق ، لتكونوا عجيناً جديداً كما أنكم فطير ! فإنه قد ذبح فصحنا المسيح ، فلنعيد إذن لا بالخمير العتيق ولا بخمير السوء والخبث ، بل بفطير الإخلاص والحق» (١ كور ٥ : ٧-٨) - (عن لويس برسوم : حياة يسوع المسيح ج٢ ص ١٣٦، ١٣٧ ، ١٤٢ - ١٤٥)

١ - لويس برسوم : حياة يسوع المسيح ج٢ ، (رسم الأفخارستيا) ص ١٥٥ - ١٥٨.

كل شيء مشتركاً .. إذ لم يكن فيهم أحد محتاجاً ، لأنّ كل الذين كانوا أصحاب حقول أو بيوت كانوا يبيعونها ويأتون بأثمان المبيعات ويضعوها عند أرجل الرسل ، فكان يُوزّع على كل واحد كما يكون له احتياج . ويوسف الذي دعى من الرسل برنابا - يُترجمُ ابن الوعظ وهو لاوي قبرسي الجنس - إذ كان له حقل باعه وأتى بالدراهم ووضعها عند أرجل الرسل ».

«وفي تلك الأيام إذ تكاثر التلاميذ ، حدث تذمّر من اليونانيين على العبرانيين : أنّ أراملهم كن يُغْفَلُ عنهن في الخدمة اليومية . فدعا الاثنا عشر جمهور التلاميذ ، وقالوا : لا يُرضى أن نترك نحن كلمة الله ونخدم موائد ، فانتخبوا أيها الإخوة سبعة رجال منكم مشهوداً لهم ومملّوين من الروح القدس وحكمة - فنقيمهم على هذه الحاجة ، وأما نحن فنواظب على الصلاة وخدمة الكلمة . فحسن هذا القول أمام كل الجمهور ، فاختاروا ... » (أعمال ٢ : ٤٢-٤٦ ، ٤ : ٣٢ ، ٣٤-٣٧ ، ٦ : ١-٦) .

بذلك كان رسل المسيح يقولون ما يفعلون ، يأمرون الناس بالبر ولا ينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب !

وكما كانوا القدوة الطيبة والأسوة الحسنة في العمل ، واصلوا بالقول والبيان معالجة مشكلة الأغنياء والفقراء من عقدتها النفسية والفلسفية ، يقول بولس الرسول :

«أوصى الأغنياء في الدهر الحاضر أن لا يستكبروا ، ولا يلقوا رجاءهم على غير يقينية الغنى ، بل على الله الحيّ الذي يمنحنا كل شيء بغنى للتمتّع ! وأن يصنعوا صلاحاً ، وأن يكونوا أغنياء في أعمال صالحة ، وأن يكونوا أسخياء في العطاء ، كرماء في التوزيع ، مدّخرين أساساً حسناً للمستقبل ، لكي يمسكوا بالحياة الأبدية ».

وفي رسالة يعقوب : «... وأما الغنيّ فباتضاعه ، لأنه كزهر العشب يزول ، لأنّ الشمس أشرقت بالحرّ فيبّست العشب فسقط زهره وفنى جمال منظره ! هكذا يذبل

الغني أيضاً ي طرقه ! طوبى للرجل الذي يحتمل التجربة ، لأنّه إذا تزكّى ينال إكليل الحياة الذي وعد به الرب للذين يحبّونه .. هلمّ الآن أيها الأغنياء ، ابكوا مولولين على شقاوتكم القادمة . غناكم قد تهرّأ ، وثيابكم قد أكلها العثّ ! ذهبكم وفضتكم قد صدئا ، وصدأها يكون شهادة عليكم ويأكل لحومكم كنار ! قد كنزتم في الأيام الأخيرة ... هوذا أجرة الفعلة الذين يحصدوا حقولهم المنحوسة منكم تصرخ ، وصياح الحصّادين قد دخل إلى أذني ربّ الجنود ! قد ترفهتم على الأرض وتنعّمتُم وربيّتم قلوبكم كما في يوم الذبح !! حكمتم على البار .. قتلتموه ... لا يقاومكم » (١ تيموثاوس ٦ : ١٧-١٩ ، يعقوب١ : ١٠-١٢ ، ٥ : ١-٦).

صرخة صادقة ... ونذير مبين !!

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ...... وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ...... مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد : ٧ ، ٩-١١].

﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة : ٣٤ ، ٣٥] .

هذه هي تعاليم المسيحية إزاء المرأة والطفل ، إزاء العبيد والفقراء ..

فكيف ينظر المفكرون اليوم في عصر الديمقراطية والاشتراكية إلى هذه التعالم؟؟

«قد فهم الكثيرون ملكوت الله ، بأنه (طوبى utopia) جماعية ، وحسبوا المسيح ثائراً اجتماعيًّا ! وإنا لنرى في الأناجيل بعض الشواهد التي تؤيد هذا الرأي .. ويبدو أن الرسل كانوا يُفسرون الملكوت بأنه انقلاب ثوري للعلاقات القائمة بين الأغنياء والفقراء .. (وجميع الذين آمنوا كانوا معاً ، وكان عندهم كل شيء مشتركاً) ... وكانت التهمة التي أدانت عيسى أنه (ملك اليهود) !! ..

لكن في وسع المحافظ أن يجد في العهد الجديد شواهد تؤيد رأيه ! منها أنّ متى ظلّ عاملاً للرومان ، ومنها أن المسيح لم يطعن على الحكومة المدنية ، ولم يكن له - فيما نعلم - نصيب في الحركة اليهودية للحرية القومية ، وكان ينصح بالكياسة البعيدة أشدّ البعد عن الثورة السياسية !! ولسنا نجد في قصة الرجل الذي (دعا عبيده) قبل سفره (وسلّمه أمواله) أي شكوى من الربا أو الاسترقاق !! ويبدو أنه يُقرّ ما فعله العبد الذي استثمر العشر الميقات فصارت عشرين ، ولا يقرّ عمل العبد الذي حبس الواحدة فلم يستثمرها ! وينطق السيد : (إنّ كل من له يعطى فيزداد ، ومن ليس له فالذي عنده يؤخذ منه) - وهي خير ما تُلخّص به أعمال السوق التجارية ! بل خير خلاصة لتاريخ العالم !! وفي قصة رمزية أخرى نرى العمال غاضبين على صاحب العمل الذي يأجر عن عمل ساعة بقدر الذين كدحوا طول اليوم ، فينطق المسيح صاحب العمل : (أو ما يحل لي أن أفعل ما أريد بمالي!) . ويبدو أنه لم يفكر في القضاء على الفقر ، لأنّ الفقراء كانوا دائماً معه !!

ويرى أن يخدم العبد سيده على خير وجه ، وهو لا يرى من شأنه أن يهاجم النظم الاقتصادية أو السياسية القائمة في وقته ، بل يهاجم ذوي النفوس الثائرة المتحمسة الذين يغتصبون ملكوت السموات !!؟

أما الثورة التي فكر فيها فأعمق وأبعد أثراً ، فهي ثورة إذا لم تحدث كانت كل الإصلاحات سطحية سريعة الزوال ! فإذا استطاع أن يُطَهِّرَ قلوب الناس

من الأنانية والقسوة والفجور فإن (الطوبى) تحلّ ، ولا يبقى أثر لتلك النظم التي تنشأ من شره الإنسان وعنفه ، وما تستتبعه الحاجة للقوانين ! وهذا - إذ تمّ - أعمق الثورات ، إذا قيست إليه جميعاً كانت تغيّراً موقوتاً يضع طبقة مكان طبقة ، فتظل الطبقة الغالبة تستغلّ الناس كما كانت تستغلّهم الطبقة المغلوبة ! وبهذا المعنى كان المسيح أعظم الثائرين - أي محدثي الانقلابات - في تاريخ العالم . وليست أهم أعماله أنه يبشّر بدولة جديدة ، بل يضع الخطوط الرئيسية لمبادئ أخلاقية مثالية!» [1] .

«لقد نشأت المسيحية في ظلّ الإمبراطورية الرومانية ، في وقت تحجَّرت فيه الديانة اليهودية واستحالت طقوساً جامدة لا حياة فيها ، ومظاهر خاوية لا روح فيها ! وكان للإمبراطورية الرومانية قوانينها المشهورة التي لا تزال ينبوعاً للقوانين الأوربية الحديثة ، وكان للمجتمع الروماني نظمه الوضعية ومقوّماته الاجتماعية ، فلم تكن المسيحية بحاجة يومئذ - ولا كانت بقادرة يومذاك - أن تضع للدولة الرومانية الوطيدة وللمجتمع الروماني المعقّد قوانين ونظماً وحدوداً للسير على هداها في الدولة والمجتمع ، بقدر ما كانت محتاجة وقادرة على أن تنصرف إلى التهذيب الروحي والتطّهر الوجداني ، وبقدر ما كانت معنيّة بنقد الطقوس الجامدة والمظاهر الخاوية في شعائر اليهودية ، وردّ الروح والحياة إلى الضمير الإسرائيلي . والمسيح عليه السلام إنما جاء داعية للصفاء الروحي والرحمة واللين والتسامح والعفة والزهد ، ولم يشر إلا إشارات عارضة للنظم الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية ، بل كان يلمح من تصرفاته وتصريحاته أنه لا يستريح إلى قيود التقاليد من الكهّان اللاويين والكتبة لأنها أعمال ظاهرة ، وهو كان موكلاً بالبواطن والأرواح ..

---

[1] - ديوارنت : قصة الحضارة ج٣ م٣ (قيصر والمسيح) - ترجمة بدران ص٢٢٦ - ٢٢٨ ملخصاً.

ولقد بلغت المسيحية في التطهر الروحي والتجرّد المادي والسماحة الوجدانية غاية ما بعدها غاية ، وأدّت واجبها في هذا الجانب من حياة الإنسانية الروحية بقدر ما تستطيع ديانة أن ترتفع بالروح وأن تسمو بالوجدان وأن تُنظّف القلب والضمير وأن تكبت الغرائز وتعلو على الضرورات وتهدف إلى أشواق مقدّسة في عالم المثال والخيال ، تاركة المجتمع للدولة تُنظّمه بقوانينها الأرضية في عالم الظاهر والواقع إذ كانت هي معنيّة بعالم النفس والضمير ..

ثم شاء الله أن تعبر المسيحية البحار إلى أوربا بكل سماحتها ، وكل تطهّرها وكل تجرّدها من عالم المادة .. وهنا وجدت الرومان ورثة الحضارة الإغريقية المادية الوثنية ، كما وجدت أقواماً في أنحاء أوربا حديثي عهد بالبربرية ، يتناحرون بجموعهم الكثيفة على رقعة من الأرض ضيّقة ذات طبيعة قاسية وعرة ، ضنينة شحيحة ، لايملك من يعيش فيها أن يذوق طعم الراحة فترة ولا أن يلقي سلاحه لحظة ، ولا أن يركن في واقع الحياة إلى نظريات المسيحية السمحة الموغلة في السماحة .. ومن هنا كانت تلك العزلة بين الدين والدنيا في حياة الأوربيين »[1]!!

والحقّ الذي لا مرية فيه أنّ المسيح قد اختار علاج القلوب على صياغة النظم والشرائع .. لكن ليس معنى هذا أنّ وصايا المسيحية غامضة مبهمة ، وأنّ دلالات بعض الأمثال قد تذهب إلى إقرار الرقّ والربا – كما يشير ديورانت ... فإن هذه الأمثال لا تخفى دلالاتها الاستنكارية لأوضاع الظلم والعدوان في معظم الأحيان!!

ولم تكن جموع المستضعفين والمضطّهدين التي أقبلت على المسيحية تسير إلى متاهة ، أو تتلّهى عن آلامها بخيالات .. والقول بأن المسيح لم يفكّر في القضاء على الفقر لأن صحبه هم الفقراء مداعبة ممجوجة مردودة !

١- سيد قطب : العدالة الاجتماعية في الإسلام - (فصل : الدين والمجتمع بين المسيحية والإسلام) ص ٦ - ٩ .

والمولعون في عصرنا (بالتفسير المذهبي للتاريخ) - أو التفسير (الواحدي) للتاريخ - حيث يتّجه التفسير إلى انتقاء علّة واحدة تهيمن على مجرى الحوادث التاريخية كلها - هؤلاء الواحديون يرغبون أن يدخلوا المسيحية في مجال انتصارهم لمذهبهم وتدليلهم على صوابه : «لما كان (المذهب التاريخي المادي) الذي قال به كارل ماركس Karl Marx وإنجلز .F. Engls - يفسّر دائماً الناحية المعنوية في المجتمعات بأنها تقوم على أساس تركيبها المادي ، ولما كان يجعل الحاجة الحيوانية محوراً للتطور الإنساني ، فقد كان هذا هو السبب نفسه في تفسيره الدين بأنه مجرد ظاهرة عرضية لا أهمية لها من الوجهة الاجتماعية . وقد كتب أحد أتباع ماركس فقال : (ما كان للدين والفلسفة أن يوجدا دون الشروط الاقتصادية التي تجعل ظهورهما أمراً ممكناً) ! فما كان للمسيحية أن توجد دون الانقلاب الذي صحب الفتوح الرومانية ، وما كان للمذهب البروتستنتي أن يوجد دون نشأة الطبقة المتوسطة ! ويرى هذا المذهب - بصفة خاصة جدًّا - أن نظام توزيع الأراضي يلعب دوراً هامًّا ، ويفسّر على هذا النحو بعض الظواهر التي يبدو عليها غلبة الطابع الصوفي لأول وهلة مثل النبوات لدى اليهود أو مجيء المنقذ لدى المسيحيين ! وهكذا لا تعكس أصول العقيدة والمعتقدات سوى المصالح الحيوية للطبقات الاجتماعية ، وسوى المنازعات الدينية والصراع بين هذه المصالح أو بين هذه الطبقات !!

وإلى جانب هذا التفسير المادي للعلاقات بين المذاهب الدينية والنظم الاقتصادية ، يوجد تفسير آخر : وهو التفسير السيكلوجي (النفسي) كما يسميه ماكس فيبر Max Weber . وقد جاء نيتشة بهذا التفسير ، فالمسيحية ديانة الجماعة المضطّهدة ، لأنها تعبّر عن عواطف الكراهية التي يشعر بها الأرقّاء تجاه أسيادهم ، ولأنها تستخدم في الوقت نفسه الإيمان بوجود الفردوس لتخفّف آلام الحاجة إلى التحرّر والراحة التي يضطّرب لها تفكير هؤلاء البؤساء ! ولما ترك المذهب

الكاثوليكي نفسه فريسة لعدوى وثنية عصر النهضة وأصبح مذهباً أرستقراطيًّا ، أخذ المذهب البروتستانتي على نفسه مهمة المطالبة بحقوق الطبقات العاملة !! ... وليس أساس هذا التفسير شديد الاختلاف عن أساس التفسير السابق »[1] !!

والتفسير الواحدي - ماديًّا كان أو نفسيًّا أو غير ذلك - لا يتأتى له أن يغني ويشفي إزاء مختلف ظواهر التاريخ المعقّدة ! ومع اعترافنا بوجاهة بعض هذه الملاحظات التي يبديها المتصرون لهذا المذهب أو ذاك - إذ الإنسان له مطالب وحاجات لابد من العمل لإشباعها ، فإن البعض يرى أنّ الظاهرة المضادّة هي التي تحدث في أكثر الأحيان من قديم : «فتطوّر الدين هو الذي يغيّر النظام الاقتصادي لدى الشعوب ... وقد بيّن كثير من الاقتصاديين - مثل دولافيلي - أنّ رخاء الشعوب يتوقف على عقائدها . وبعد أن قرّر ماكس فيبر - على خلاف المذهب المادي التاريخي - أنّ الإصلاح البروتستنتي لم يكن ظلًّا لظهور الطبقة الوسطى ، أبرز على ضوء الإحصاءات وجود علاقة بين المذهب البروتستنتي والنظام الرأسمالي في أسمى درجاته ، وهكذا من الأحرى أن يقال إن النظام الرأسمال كان إحدى نتائج المذهب البروتستنتي ! وليس معنى هذا أنّ البروتستنتي يفوق الكاثوليكي في اتجاهه المادي ، فإنّ للمتطهرين Puritans فكرة تقوم على التشاؤم من العالم والزهد فيه ! لكن لما كان الزهد يحفز على الاقتصاد ، فقد ساعد على تركيز رءوس الأموال - وهكذا استُخدم على نحو غريب كدعامة للنظام الرأسمالي ! أضف إلى هذا أنّ البروتستنتي لما كان يتخذ عمله سبيلاً إلى تحقيق سعادته الأخروية ، فإنه يؤدي عمله على أكمل وجه طبقاً لما يوحي به إليه ضميره - وهكذا يصبح مديراً صناعيًّا ممتازاً ! وفيما عدا هذا فإن بعض البحوث الأخرى - وبخاصة فيما يتعلّق بالاقتصاد الهندي والصيني - أكدت لماكس فيبر وجهة نظره الخاصة : وهي أنّ النظام الرأسمالي الذي

---

١ - باستيد Bastide : مبادئ علم الاجتماع الديني - (ترجمة دكتور محمود قاسم) ص ٢٠٥ ، ٢٠٦.

يبدو للوهلة الأولى أنه لايرجع إلا إلى أصول مادية ، يحتاج في نشأته ونموّه إلى بيئات دينية ملائمة »[1] ...

ونحن إذ لا نقبل أي تفسير واحدي ، نعرف أن الدين ليس (مقذوفاً) ينطق على الناس مباغتاً من علٍ دون أن يتحرّى موافقة احتياجاتهم وتلبية رغباتهم ! ... فمن إعجاز الرسالات أن يرسلها الله في وقتها المناسب لتعمل عملها المنتظر ، ولكن لايعني هذا أنها اصطُنعت اصطناعاً من لدن القوم لعلاج أدوائهم ، لأنّ مستوى الرسالة يكون دائماً أرفع و أسمى من أي جهد بشري للإصلاح .

وغريب أن يقال : إنّ المسيحية - على حد قول نيتشه والتفسير السيكولوجي - هي دين الجماعات المضطّهدة ! فاليهود وقت الرسالة المسيحية - كما يدلّ التاريخ وتشهد الأناجيل نفسها - لم يكونوا مضطّهدين إلى هذا الحدّ ... كانت تطوف حول طائفتهم شكوك ، وربما حامت حول بعض أفرادهم شبهات ، وقد قام الغلاة الجليليون بثورات ، لكننا لا نستطيع أن نقول : إنّ اليهود كطائفة كانوا محلّ اضطهاد عام شامل في إمبراطورية الرومان وقت مبعث المسيح . بل على العكس كانت لهم امتيازاتهم الدينية والطائفية ، وبيلاطس الوالي الروماني أراد أن يدع المسيح لليهود لينفذوا فيه حكم التوراة : «فقال لهم بيلاطس خذوه أنتم واحكموا عليه حسب ناموسكم ! فقال له اليهود لا يجوز لنا أن نقتل أحداً »! (يو ١٨ : ٣١) .

والمسيح لم يُؤْتَ من قبل الدولة ، بل من قبل اليهود ... وإقبال المضطّهدين والمستضعفين على المسيحية بهذا المعنى المقصود قد يكون بعد أن عبرت الرسالة طريقها إلى أوربا ، وهذا إذا فسّر نجاحها في الانتشار هناك فلا يفسّر قيامها بفلسطين في البداية .

---

[1] - باستيد Bastide : مبادئ علم الاجتماع الديني - (ترجمة دكتور محمود قاسم) مبحث الدين والحياة الاقتصادية ص ٢٠٥-٢١٢.

أما أن نقول إن الله يرسل رسله وينزل كتبه لصالح الخلق - فهذا بديهي مسلّم ، إذ أنه سبحانه لن يزيد ملكه بطاعة الطائعين ، ولن ينتقص منه بمعصية العاصين ! وإنما يريد الله أن يحرّر عباده من سيطرة الأهواء والأفراد والجماعات بتوجيههم إليه جلّ وعلا ، ليأووا إلى ركن شديد ، وينقادوا للقوة الكبرى التي لا تحابي ولا تتحامل ..

«تعالوا إليَّ يا جميع المتعبدين والثقلى الأحمال وأنا أريحكم ... احملوا نيري عليكم وتعلّموا مني - لأني وضيع ومتواضع القلب ، فتجدوا راحة لنفوسكم ... لأنّ نيري هين وحملي ضعيف » (مت ١١ : ٢٨-٣٠) .

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف : ١٥٧] ، ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال : ٢٦] .

وجماع القول في الاتجاهات المختلفة لتفسير المسيحية واتجاهاتها الاجتماعية ، ما أجمله الكاتب الأمريكي جون هرمان راندال إذ يقول : «ورث التقليد المسيحي من الشعب العبري الاعتقاد الأساسي في أنّ الله أعطى الإنسان عن طريق الوحي السماوي شريعة أبان له فيها واجباته ، فما أوصت به الشريعة فهو خير وما نهت عنه فهو شر ، وتقوم الأخلاق على أساس من العدل والطاعة لهذه الشريعة الإلهية العليا .. وتتضمّن كتب العبرانيين المقدسة نزعتين متباينتين : الأولى - تذهب في تفسير هذه الشريعة إلى أنّها مجموعة كاملة ثابتة من الطقوس والاحتفالات ، وسنّة اجتماعية تلائم بيئة فلسطين الزراعية البسيطة نمت وتطورت على أيدي طبقة من الكهنة

ونُفِذَت بحرفيتها لأنها كانت تمثل إرادة الله ، والثانية – تذهب إلى ما وراء هذه الشريعة اللاوية (لاويين الكتاب الثالث من التوراة ، وهو مجموعة قوانين العبادات) إلى مبادئ الخير والحق والشفقة التي أعرب الأنبياء عنها في دعواتهم الشاملة والبسيطة . فالنزعة الأولى تنتهي إلى نظام شكلي ثابت محدّد يقوم على المحافظة الدقيقة على الطقوس ، بينما تنتهي الثانية إلى كراهية ملتهبة للظلم وحماساً ثوريًا للمظلومين يصبح أحياناً عنيفاً شرساً قاسياً متعصّباً غير متسامح ، ويكون أحياناً أخرى شفوقاً متعقّلاً كليّا في عواطفه واتساعه ...

ومع أنّ القرون الوسطى لم تحافظ على قانون الطقوس القديم ، أو على العرف الاجتماعي – بسبب تشديد بطرس الرسول على أنّ مجيء المسيح نقض القانون القديم ، وبسبب عادة اللاهوتين المسيحيين من البحث عن المعاني الخفية لا عن المعاني الحرفية في ظاهر النصوص – ومع ذلك فقد بقيت تلك الفكرة قوية . وانتهت إلى الواجب الأخلاقي القائل بضرورة المحافظة على العبادات كما توصي بها الكنيسة . ولم يناد سوى البسطاء – وخاصة فرق المتطهّرين Puritans المتشدّدين في الأخذ بحرفية النص في حركة الإصلاح الديني – بتوطيد الحياة على أساس الحكومة الدينية التي عرفها قدماء العبرانيين ! ...

تلقَّت المسيحية من الأناجيل تياراً جديداً كاملاً من المحبة ، ويعتبر يسوع الناصري من نواح كثيرة – وخاصة من حيث تعاليمه الأخلاقية – في عداد الأنبياء . وترنّ كلماته بنبرات الغضب الشديد على قانون الكتبة والفريسيين الشكلي ، كما تعكس مواعظه الشفقة على الفقراء والمنبوذين ، والاعتقاد بالأبوة الإلهية الشاملة والإخاء الإنساني ، والتشديد على إطاعة الأوامر الإلهية – كما فعل الأنبياء تماماً قبله . ولكن جوهر الأناجيل هو تشديد جديد على محبة الله الشاملة للإنسان ، ومحبة الإنسان للإنسان في الله .. وليس اتباع وصايا الله في الصلاة والصوم ، وإنما في طهارة القلب – تلك

الطهارة التي ترفض عمل الشر وفكرته ، وتسعى لأن تولد حسن النية إزاء جميع الناس ...

وواقع الأمر أنه وجدت أنوار وحي وإلهام مشرق مشعّ ! وفي هذه الرسالة بذور ثورة قوية : لأنه إن كان ملكوت الله سيصبح حقيقة واضحة حية على الأرض ، وإذا كان الأقوياء سيهبطون والضعفاء سيرتفعون ، وإذا امَّحت الثورة وتلاشت الأنانية - فلابدَّ للإنسان أن يحقّق سماء جديدة وأرضاً جديدة! ولقد حاول الناس مرة بعد أخرى أن يفسّروا الإنجيل بهذا الاتجاه ...

على أننا لا نعدم أن نجد اتجاهاً معاكساً في الأناجيل ، وأن نجد ما يؤيده! فإذا كان ملكوت الله قبل كل شيء فينا - وليس في العالم الخارجي ، وإذا كان من واجبنا أن نعطي ما لقيصر وأن نشغل أنفسنا بالأمور الإلهية دون سواها ، وإذا كانت الحكومات القائمة من أمر الله وبمشيئته حتى إذا قاومها الإنسان قاوم أوامر ربه واستحق نقمته : إذن فالنظام القائم نظام مقدّس ! وطريق المحبة - وإن كان طريقاً قاسياً - فهو الطريق الذي مشاه القديس فرنسوا الهادئ المسالم ، لا طريق الثائر الاجتماعي ! ومن الطبيعي أن يؤيدّ الملوك والأساقفة وأصحاب الأملاك الكبيرة والمصالح القائمة مثل هذا التأويل !! أما إذا كان ملكوت الله ليس على الأرض وإنما هو في العالم الثاني ، إذن فطريق الكنيسة لابدّ وأن توصّل إليها . وفي الأناجيل مصادر لجميع هذه الآراء دخلت كلّها في التقليد المسيحي !

وكان بولس هو الذي طبع المثل الأعلى المسيحي بطابع المحافظة ... ولكن تحدّر من بولس أيضاً التشديد على الواجبات المتقابلة بين جميع الطبقات ، والتذكير بأنّ القوى الحاكمة هي خادمة لله ومسئولة تجاهه ، وأنّ الثروة مجرد وسيلة لخدمة الإخاء الإنساني . ولقد جذبت هذه الناحية من نظرية بولس مجتمع القرون الوسطى

الطبقي بصفة خاصة ، بمثل ما ألهم تشديده على الناحية الشخصية في الدين أصحاب النزعة الفردية في حركة الإصلاح الديني »[1] .

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾ [الزخرف : ٦٣ - ٦٥] .

---

١ - جون هرمان راندال John Herman Randall : تكوين العقل الحديث (ترجمة دكتور جورج طعمة) ج١ ص٨٠ ، ٨١ ، ٨٤ - ٨٦.